

# الكافة في القسامة

الأستاذ عبد الله كنون

فلما جاء الاسلام وغمر العرب بعقيدته وتشريعه ونظريته الشاملة للمجتمع والحياة ، اتسعت دائره اللغة العربية لفظا وتعبيرا ، وتمزز البيان العربي بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، واصبحت لغة العرب لغة دين ودولة ومجتمع متحول من حياة البداوة الى حياة المدنية التي جاءت بدعا في المدينيات لا تشبه غيرها بما لها من سمات خاصة ومثل متميزة ، فلا غرو ان يفني الاسلام هذه اللغة ويجعل دلالاتها ذات ابعاد تقصر عنها اللغات التي احتضنت الحضارة الانسانية قبلها ، فلا تملك الا ان تنقل عنها وتقتبس منها بعد ان اعتنق اهلها الدين الجديد . وكان ذلك مما حمل الاسلام لافاظها من معان جديدة وما اتي به من تعابير لم تكن تعرفها من قبل .

وفى هذا الصدد يذكر علماءنا عبارات وجملا مما اتي في القرآن ولم تنطق به العرب قبله كجملة سقط في ايديهم او في السنة كعبارة حمي الوطيس .

ثم كان عهد الترجمة والنقل لعلوم الامم المتقدمة ومعارفها ، وما كان لذلك من تأثير في اللغة العربية سواء من حيث اقتباس المصطلحات العلمية او وضعها ، ام من حيث مجازاة عبارات المؤلفين او ترجمتها ، كله معلوم للجميع فلا نطيل به .

ولا ريب ان ما جرى ويجري في عصرنا هذا هو من هذا القبيل ، فالأخذ والعطاء من سنن الحياة ، ولا غشاة على العربية ان تتبنى الفاظا وعبارات بله الصور الكلامية التي يستحسنها الكتاب والمترجمون من لغات اخرى ، اذا كانت تنسجم مع الأسلوب

اقتبست اللغة العربية في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، وما تزال تقتبس بطريق الترجمة عن اللغات الاخرى ، عبارات وصورا كلامية كثيرة اثرت محصولها من البيان وان كان ثريا من قبل ، ولكنها زادته ، ونوعت طرق الاداء فيها وقد كانت متنوعة بدونها ، الا انها توسعت نتيجة لذلك بكيفية ملحوظة . وهذا لان اللغة كائن حي يزيد وينمو بالغذاء والتطعيم ويضوى ويضمربترك التعهد والعناية .

ففي العهد الجاهلي كانت العربية لغة مستكملة التكوين ، تفي بالتعبير عن مقاصد اهلها ومشاعرهم ، وهي الى كونها لغة مجتمع محدود الاغراض والمصالح ، قد اضطرت الى الاقتباس من لغات اخرى مشتركة معها في الاصل او مختلفة ، فاخذت منها عديدا من الكلمات تسمى بالدخيل ، ولم يزر بها ذلك في شيء ، لا سيما وهي في حيويتها وفعاليتها قد صاغت صياغة خاصة واضفت عليها من طابعها الاصيل ما جعلها تبدو كأنها من صميم الضاد .

وهذا في الالفاظ شيء معلوم لا جدال فيه ، واما في التركيب والتعبير فقير بعيد ان يكون العرب قد تأثروا بغيرهم في بعض الصور الكلامية مما كانوا يسمعون في هذه اللغة او تلك ، بناء على عموم قاعدة الاخذ والعطاء ، ونحن نعلم ما لاحظه قدماء النقاد على عدي بن زيد العبادي واعشى قيس ومن ماثلهما في الاتصال بالعجم ، من ذكرهما لاشياء لا تعرفها العرب حتى ان بعضهم توقف في الاستشهاد بهما ، فهذا من ذلك . وهو تحفظ شبيه بتحفظ بعض لغويينا ازاء كل جديد في عصرنا هذا وقبله .

العربي ولو كان هناك ما يماثلها ، فقد وضعنا الهاتف ولكننا ما نزال نقول التلفون ، ووصف الدكتور لا نجد من يتنازل عنه ولو كان من أكثر الناس تحفظا في هذا الصدد ، مع ان وصف الطبيب موجود في العربية من قديم . وهكذا نرى ان ثروة اللغة وغناها من ذاتها وبالاقباس ، شيء واقع ومرغوب فيه ، حتى ولو أدى الى خرق بعض القواعد المقررة كما نفعل هنا في هذا المجمع أحيانا .

وما اعرضه على انظاركم اليوم هو تعبير من مئات التعابير التي دخلت العربية في العصر الحديث وجرت على الأقلام والالسن ، فلم ينكرها احد ولا اعترض عليها معترض ، بل اعتبر ذلك من التجديد للغة والتوسع في طرق البيان ، وحقا هو كذلك ، فقد أصبحت العربية بمقتضاه تسائر ركب الحضارة الجديدة ولا تتخلف عنه في شيء ، ولا سيما في حقل الادب والفن والعلوم الانسانية والسياسة والاجتماع . ولكن هذا التعبير ما يزال توجه اليه النظرات الشذراء من رجال اللغة ، وينبذه المتحفظون وان كان مما شاع وذاع وملا الاسماع كما نقول فيما حفظناه من الاسجاع .

انه التعبير الذي تدخل فيه هذه الكاف التي حجب الى ان اسمها الكاف التمثيلية ، فرقا بينها وبين كاف التشبيه ولانها تقع موقع مثل ، وهي المقابلة لـ comme الفرنسية و como الاسبانية في مثل قولنا فلان كسفير يمثل بلاده احسن تمثيل ، والوالي كأحد رجال الشرطة يجب ان يحتفظ بهيبته .

ولمزيد الايضاح ابين كيف تقع هذه الكاف في عنوان بحث كنت القيته في هذا المجمع منذ سنتين وهو ابن رشد الفقيه .

فقد كتبت هذا البحث عن الحفيد ابن رشد ، واسمه محمد وكنيته أبو الوليد مثل اسم جده وكنيته تماما ، واشتهر هو بالفلسفة كما اشتهر جده بالفقه . وارتد ان يكون عنوان البحث دالا من اول وهلة على المراد ، فقلت اجمله الحفيد ابن رشد الفقيه أو فقيهها ، فلم اجده يؤدي ما في نفسي بوضوح مع طوله ، وقلت اجمله الفيلسوف ابن رشد الفقيه أو فقيهها ، فوجدته يقارب ولكنه ربما اوهم اني اتناوله بوصفيه الفقيه والفيلسوف في حين اني لم اتكلم الا على الناحية

الفقهية من ترجمته . وعرض لي استعمال هذه الكاف بان أقول ابن رشد الفيلسوف أو الحفيد كفقيه ، فوجدتها ادل على المراد من كل ما سبق ، ولكن استعمالها مرغوب عنه ، لا سيما وانا اعرض بحثي في مجمع اللغة العربية .

فعدت الى العنوان الذي خطر لي اول مرة ، هو ابن رشد الفقيه ، اتكالا على ان الشهرة المطبقة لهذا الاسم ، بين العرب وغيرهم ، انما هي للفيلسوف لا للفقيه . وقد ترجم ذلك البحث الى الاسبانية ونشر بمجلة الفكر التي يصدرها المعهد الاسباني للفلسفة في العصر الوسيط بعنوان Averroes Elyurista وكان واضحا اشد الوضوح ان المراد به الحفيد لا الجد . على اني في طالعة البحث بينت اني انما اعني صاحبنا الفيلسوف لا جده الفقيه .

لذا ولما قدمت من ان اقتباس التعابير اللغوية كإقتباس الالفاظ ، لا ضير فيه ، حتى لو كان هناك ما يماثلها ، فانه يعد كالمترادف ، والمترادف قلما يخلو من فرق دقيق بين معانيه ، وكذا الجمل والتراكيب ، اقول لما ذكر فكرت في ان احاول تخريج هذه الكاف وأوجه استعمالها على نحو مقبول في العربية . فرجعت الى المعاني التي يذكرها علمائنا للكاف ، فاذا هي اربعة عند ابن مالك ، كما قال في الالفية :

شبه بكاف وبها التعليل قد

يعنى وزائدا لتوكيد ورد

واستعمل اسما .

وعند ابن هشام في المعنى ستة بزيادة الاستعلاء والمبادرة .

وقد استبعدت منها هذين المعنيين الاخيرين لانهما لا ينطبقان على هذه الكاف التي نتكلم عليها . وكذلك معنى التشبيه لانه الذي يتطرق منه النقاد الى ضعف استعمال هذه الكاف فيه ، اذ كان المشبه فيها هو عين المشبه به (1) ، فان قول الشخص مثلا انسا ككاتب لا اخرج من استعمال هذا التعبير ، انما يعني نفسه . فاختل حينئذ احد اركان التشبيه ، وان كنت انا شخصا لا ارى ذلك ضربة لازب ، فيجوز ان يعني غيره ، ويحسن ذلك قصد التواضع في حالة التكلم كما في مثالنا هذا .

(1) ولهذا سميتها الكاف التمثيلية فان التمثيل للقاعدة يكون بفرد من أفرادها فهو منها ، كقولنا الفاعل مرفوع مثاله قام زيد .

قد ايفعت لداته وبلغت اترابه يريدون ايفاعه وبلوغه .  
وفي حديث رقيقة بنت صيفى فى سقيا عبد المطلب  
نالا وفيهم الطيب الطاهر لداته والقصد الى طهارته  
وطيبه . فاذا علم انه من باب الكناية لم يقع فرق بين  
قوله ليس كالله شيء وبين قوله ليس كمثله شيء ، الا  
ما تعطيه الكناية من فائدتها . وكأنهما عبارتان معتقتان  
على معنى واحد ، وهو نفي المائلة عن ذاته . ونحوه  
قوله تعالى ( بل يدها مبسوطتان ) فان معناه بل هو  
جواد من غير تصوير يد ، ولا بسط لها ، لانها وقمت  
عبارة عن الجود لا يقصدون شيئا آخر ، حتى انهم  
استعملوها فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فمن  
له مثل ومن لا مثل له . ولك ان تزعم ان كلمة التشبيه  
كررت للتأكيد كما كررها من قال :

وصاليات ككما يؤنفين .

ومن قال : فاصبحت مثل كعصف مأكول .  
وفى التلخيص للقرويني : ومما يرى تقديمه  
كاللازم لفظ مثل وغير فى نحو مثلك لا يبخل وغيرك  
لا يوجد الخ قال السعد فى شرحه : اذا استعملا يعنى  
مثل وغير على سبيل الكناية بأن يراد بالمثل والغير  
انسان آخر مماثل للمخاطب او غير مماثل ، بل المراد  
نفي البخل عنه على طريق الكناية ، لانه اذا نفى عمن  
كان على صفته من غير قصد الى مماثل لزم نفيه عنه  
وابتات الجود له بنفيه عن غيره .

فتلخص من هذا ان الكاف ، وهي للتشبيه ، قد  
يعنى بها ما يعنى بمثل اي ذات الشخص والشخص  
نفسه ، فاذا قلنا فلان كسفير يمثل بلاده احسن تمثيل  
فالمراد فلان نفسه ، وانما عدلنا الى هذا التعبير قصد  
الكناية التي هي ابلغ من التصريح .

وقد تأكد بهذه القول ما قدمته من ان كاف  
التشبيه قد تدخل هنا ، لان المشبه به اعم من ان يراد  
به المشبه نفسه .

وخامس معاني الكاف ان تكون اسمية بمعنى  
مثل ، فتعرب حينئذ بما يقتضيه المقام نحو زيد  
كالاسد . قال فى المعنى : الكاف فى موضع رفع  
والاسد مخفوض بالاضافة . وكثيرا ما يقع هذا فى  
كتب المعربين . وعليه فاذا قلنا زيد كاديب له شهرة  
عالمية ، كان معناه زيد مثل اديب بنصب المثل على  
الحال ، ولعله ان يكون على ما تقدم ابلغ من قولنا زيد  
اديبا ، وقلت لعله ، لاني لا اجزم بهذا الحكم او لا آخذ  
بهذا النظر الذي شرحته حتى يحصل على موافقتكم :

وما انا الا من غربة ان غوت  
غويت وان ترشد غزية ارشد

بقي معنى التعليل ، وقد مثلوا له بقوله تعالى :  
( فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم )  
اي لهدايته لكم . وقيده قوم بكون الكاف مكفوفة بما ،  
ولكن ابن هشام رد ذلك واستدل بقوله تعالى :  
( وي كانه لا يفلح الكافرون ) اي اعجب لعدم فلاحهم .  
ولا اظن ان هذا المعنى يمتنع فى المثال الثانى من  
المثالين السابقين ، وهو قولنا الوالى كاحد رجال  
السلطة يجب ان يحتفظ بهيبته ، والتقدير لانه من  
رجال السلطة ، فما وافقه كان مثله كقولنا فلان كوزير  
لا ينبغي له ان يتعاطى التجارة .

ثم معنى الزيادة ، ومثل له النحاة بقوله تعالى :  
( ليس كمثله شيء ) التقدير ليس شيء مثله ، اذ لو لم  
تكن زائدة للزم اثبات المثل له تعالى . وانما زيدت  
لتوكيد النفي ، وهذا هو قول ابن مالك ( وزائدا لتوكيد  
ورد ) .

والمتكلمون لا يقولون بزيادة الكاف فى هذه  
الآية ، بل يعتبرونها اصلية ويجعلون الآية من باب  
الكناية ، ويقولون انها ان دلت على نفي مثل المثل  
فذلك نفي للمثل ضرورة انتقاء الملزوم لانتقاء اللازم .

وكذلك المفسرون . قال ابو حيان فى البحر :  
تقول العرب : مثلك لا يفعل كذا ، يريدون به المخاطب ،  
كانهم اذا نفوا الوصف عن مثل الشخص كان نفيا عن  
الشخص . وهو من باب المبالغة . ومثل الآية قول  
أوس بن حجر :

ليس كمثلى الفتى زهير  
خلق يوازيه فى الفضائل  
وقول الآخر :  
وقتلنى كمثلى جدوع النخيل  
تفشاهم مسبل منهم

وقال آخر :  
سعد بن زيد اذا ابصرت فضلهم  
ما ان كمثلهم فى الناس من احد  
فجرت الآية على نهج كلام العرب من اطلاق المثل  
على نفس الشيء .

وقال الزمخشري فى الكشف : قالو مثلك لا يبخل ،  
فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته ،  
قصدا المبالغة فى ذلك فسلخوا به طريق الكتابة ،  
لانهم اذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على اخص  
اوصافه فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربي : العرب  
لا تخفر الدميم ، كان ابلغ من قولك انت لا تخفر . ومنه قولهم